القصص

صديقة الطلبة

للشاعر الفرنسي الغربر ريمبير

ترجمة السيد مظفر البقاعي

— ١ —

كان بين طلاب معهد الطب في جامعة باريس فتى لم يتجاوز التاسعة عشرة من العمر يدعى « أوجين أوبرت » ، وهو من أسرة طيبة أقام أبواه في الريف وخصصا له نفقات ضئيلة كانت تقوم بأوده ، وكان الشاب محبباً إلى رفاقه لطيب عنصره ودماثته وسخائه ، وإنما كانوا يأخذون عليه انصرافه إلى الوحدة ورغبته عن الملاهي حتى لقبوه « بالطفلة » فكان يبتسم لدن سماع اللقب يقيناً منه أنه دعابة تزيهة

وكان أوجين يمقت الغانيات ويعدهن من جنس خطر غادر ، فيسرد بين سمع صحبه وبصرهم أدلته الوفيرة على رأيه ، إلا أن هؤلاء كانوا يسخرون من مزاعمه ، ويذم في ذلك فتىً من خلانه مرح ماجن يدعى مارسيل كان لا يفتأ يحاوره ويجادله :

— أتزعم أن خطأ أو عارضاً حدث اتفاقاً يجيز لك وضع قاعدة مطردة ! ...

— بل إني أرى وجوب اجتناب أمثال هذه الأخطاء خيفة تكررها

— هذه سفسطة ...

ويطول الحوار في الفقهي ، والرفاق شهود ، ويحرص مارسيل خلاله أن يثبت لأوجين أن النساء وخصوصاً العاملات منهن طاهرات وفيات ، ثم يتخلص من ذلك إلى وصف جارة لأوجين اسمها ميمي بنسون بأوصاف مغرية يعل منها هذا فيتناول قبعته وينسل بلطف تاركا مارسيل والمواعظ تتدفق من بين شفتيه ...

— ٢ —

لم تكن ميمي بنسون جميلة بالمعنى المعروف لدى الباريسيين ، ولكنها كانت عاملة فتانة ، وهناك فرق بين الغادة الوسيمة والعاملة الوضيئة ، فتلك إذا ما ارتدت ثوباً بسيطاً وصداراً من حرير وخماراً صارت عاملة رشيقة ، وأما هذه فانها لو لبست رداء زاهياً ومعطفاً مخملياً فوقه وغطت رأسها بقبعة ، فربما بدت حسناء ، وقد تتراءى للعيان كمشجب علقت عليه الثياب المذكورة

وقد كانت الآنسة بنسون ذات أنف أخنس وفم أشدق وأسنان جيلة ووجه مستدير وعينين براقتين فيهما حور ، وشعر أسود ؛ وليست هذه أوصاف حسن باهر ، ومع ذلك فقد قرر مارسيل اغواء أوجين واغراءه بحب هذه الفتاة ؛ ولعل هذا لأنه كان هو نفسه مغرماً بالآنسة زليا صديقة الآنسة بنسون الحميمة ، راجياً أن يكون التحبب داعية الحب . ولئن كان ذلك ممكناً ، بل لو كانت المصادفة أقوى الفتن والغوايات ، فكم من أناس عجز الاتفاق عن التغلب عليهم وباءت المصادفة بالفشل ازاءهم ... ومن تلكم النفوس كانت نفس أوجين

لم يكن مارسل يجهل سجايا خدينه ، فرسم خطة سهلة أيقن أنها رائعة فعالة في التغلب على ثبات صاحبه ومقاومته ، ذلك أنه أولم احتفاء بعيد مولده وليمة كان قد هيأ لها بضع زجاجات من الجعة ، وقطعة لحم قديد ، وشيئاً من السلطة ، وقرص حلوى كبير ، وزجاجة من خمر شمبانيا . ودعا طالبين من رفاقه ، وطلب إلى صديقته زليا أن تأتيه مساء يومئذ وبصحبتها الآنسة بنسون . وفي الموعد المضروب عندما كانت الساعة تدق السابعة طرقت العاملتان الباب ودخلتا : زليا مرتدية ثوباً قصيراً مشطباً ، وبنسون رداء أسود لم يكن يفارقها . وبعد أن جلستا واحتستا الكأسين الأوليين استأذنهما رب المنزل في التغيب قليلاً ،

وقصدوا إلى منزل أوجين فوجده كعادته محاطاً بكتبه مكباً عليها ، فبعد كلمات منمقة غير ذات معنى ، بدأ يلومه برقة وينعى عليه اجهاده نفسه ، وينصحه بوجوب الاستراحة والتلهي ، ثم اقترح عليه القيام بنزهة قصيرة ، فقبل أوجين الاقتراح لأنه كان متعباً بعد إذ قضى يومه فى الدرس والمطالعة . وبعد جولة لم يعد صعباً على مارسيل أن يستزير صديقه ، وكان الفتيانان قد أطلقتا لنفسيهما العنان إذ داخلهما السأم من الانتظار ، فخلعتا وشاحيهما وحسرتا ، ثم أخذتا ترقصان وتتذوقان ما على الخوان على سبيل التسلية . فلما دخل الشابان وقفتا فى ذهول وقد تورد وجنتاها ، ثم حيتا أوجين فى استحياء وحيرة ودهشة لعرفانهما سلوكه واعتزاله ، وبعد أن أجالتا فيه النظر عادتا إلى الرقص والغناء ؛ أما أوجين فقد تقهقر ليولى الأدبار لولا أن أقفل مارسيل الباب وألقى المفتاح على المائدة وصاح :

— لقد امتلكنا هذا الناقر المتكف .. أقدم لكما يا آنستى أفضل شاب فى فرنسا ، وهو راغب فى التشرف بمعرفتكما منذ زمن طويل ، وإنه جد معجب بالآنسة بنسون

فكفت الصبيتان عن الرقص ، وحيتا أوجين كرة أخرى ، وقال له مارسيل :

— إنى قدتك بالرغم منك لتشاركنى فى عيدى الخاص ، فهلا فعلت ؟

وباشارة من مارسيل قالت له بنسون بصوت عذب : ذلك رجاؤنا يا سيدى

ووافى القوم آنئذ الطالبان المدعوان ، فلم يعد لأوجين سبيل إلى الخلاص فجلس على مضض

— ٣ —

دام العشاء إلى ساعة متأخرة أكثر خلاله الفتية من تدخين اللفائف واحتساء العقار . أما العاملتان فكانتا فكاهة المجلس وتعلة السامر بأحاديثهما الشائقة وفيها المعقول والمبالغ فيه : فمنها أن كاتبين ربحا فى القمار عشرين ألف فرنك وبدداها مع عاملتين خلال ستة أسابيع ؛ وأن ابن أحد أعاظم أغنياء باريس قدم لغسالة معروفة « لوجا » فى الأوبرا وداراً فى الضاحية فرفضتهما وآثرت أن تظل بارة بأبويها المجوزين ، وأن وجيهاً زار عاملة فنفاها أولو الأمر إلى أمريكا وأعطوها محفظة مفعمة بالأوراق المالية ...

فقاطعهما مارسيل أخيرا قائلاً : إن زليا تبتكر وتغرق ، أما الآنسة ميمى فقد فاتها أن الكاتبين ما ربحا شيئاً ، وما قدم الغنى غير برتقالة ، والعاملة فى المستشفى فى أشد حاجة إلى القوت ...

نهضت عندئذ بنسون — وقد لاح لأوجين أنها اصفرت عند سماعها الجملة الأخيرة — فقالت :

— إن كان مارسيل لا يصدق القصص فليسمع هذه الحادثة وقد كنت أحد أبطالها :

ذهبت فى الأسبوع الفائت مع اثنتين من صديقاتى وهما بلانشت وروجيت إلى مسرح (الأديون) لمشاهدة رواية ، فاستأجرنا لوجاً ودفعت روجيت الثمن — إذ كانت قد ورثت مالاً ، فرأينا ثلاثة طلاب ودعونا للعشاء ، فقمنا إلى مطعم المسرح مع الأبطال وأخذنا نطلب أفخر الأطعمة وأغلاها وأسرفنا فى الطلب ؛ وكنا كلما قدمت صحفة تناولنا منها لقمة أو لقمتين ثم نستبدلها من غيرها ، والشبان الثلاثة يحرقون الأرم على أن لو استطاعوا ازدراد شىء من الصحون المرفوضة أو المعادة ؛ وجعلوا أخيراً يفكرون فى أمر الدفع فقد كان مع أحدهم ستة فرنكات ومع الثانى دون ذلك ومع الأخير ساعته . ثم قاموا متثاقلين يجرون أرجلهم نحو المحاسب الذى ابتدرهم بقوله : الثمن مدفوع ، لأن روجيت دفعت الثمن سلفاً . ثم عرضنا على السادة المذكورين إبلاغهم إلى دورهم ولكنهم مانعوا ورفضوا جهدهم فأصررنا وقد تظاهرنا بأننا ثريات نبيلات ، وكانت روجيت تقول لى :

— يجدر بنا أيتها المركيزة أن نقود السادة إلى منازلهم

فأجيبها : حباً وكرامة يا كونتس !

لم ترق هذه القصة للتلميذين صديقى مارسيل ، فوجما وقد اغبر وجهاهما ، ولعلهما كانا يعرفان تفاصيل الحديث أكثر من الآنسة بنسون التى طلب منها مارسيل أن تسميهم له فرفضت ، فسر أوجين من إبائها وأثنى عليها قائلاً :

— أنت محقة أيتها الآنسة ، إذ ليس بين الشبان الذين يملأون الجامعات والمدارس من خلا من خطيئة ارتكبها ، أو طيش فعله ، ومع ذلك فكل رجال فرنسا البارزين من سياسيين وقضاة وأطباء إنما يخرجون من هناك ...

وقال مارسيل : هذا حق ، فكم من عين قضى طفولته يتناول الطعام فى أحقر المطاعم ، بل ربما لم يكن لديه ثمن القوت

ثم سألها وهو يغمز بعينه : ألم ترى بعدئذٍ العشاق المجهولين ؟ فأجابته غضبي نافرة : من تحسبنا ؟ أو لا تعرف بلانشت وروجيت . . . فقاطعها قائلا : حسناً لا تغضبي ، ولكنها قصة ثلاث طائشات بددن مالهن وأضمنه جزافاً كي يسخرن بثلاثة مساكين لا يد لهم في الأمر !

فأجابته : ولم إذن دعونا ؟

— ٤ —

طلب مارسل إلى ميمي أن تغني ، فأنشدت مديحاً قيل فيها يتلخص فيما يلي :

« ليس لميمي غير ثوب واحد وقبعة . رداؤها لا يرتهن مدى الزمن مهما اعتراها من محن »

وكانت الجمل الثلاث الأخيرة لازمة الأغنية ، جعل السامعون يرددونها ، ويضربون الطاولة بمقابض السكاكين أو بالفلايين فيحدث من ذلك دوي شديد أزعج الآنسة المغنية فقالت : كفى ، ليت عندنا آلة موسيقية نرقص شوطاً على إيقاعها

قال مارسل : لدى قيثارة لكن أوتارها ناقصة

وقالت زليا : هو ذا بيانو وسيعزف عليه مارسل . فحدجها هذا بنظرة غضب قاسية وقال : إنك تعلمين أنني لا أكاد أعرف عزفاً ، وأن ليس سواك من يستطيع أن يلاعب أصابع العاج ؛ ولو كنت طلبت ذلك من أوجين لسقطت على الخبير ولكني لا أريد إزعاجه

فاحمر وجه أوجين وانسل بكياسة فجلس إلى البيانو وأخذ يعزف فابتدأ الرقص ، ولكنه لم ينته إلا بعد أمد طويل إذ جعل القوم يتنقلون من رقص إلى رقص دون كلال أو ملال ، وأنهك السهر والصياح أعصاب أوجين فاستولى عليه النعاس ولكنه استمر يعزف بصورة آلية كالفارس النائم على فرسه ، وكانت الراقصات تمررن من أمامه كأشباح في الحلم . ولا مرية في أن الحزن يستولي على من يرى غيره يضحك بمعزل عنه ، وكذلك عاودت أوجين بلابله ووساوسه فجعل يناجي نفسه :

هذا لعمري سرور من حزن واغتباط من بؤس ، وإنها لحظات يخيل إلي أنها اختلست من أوقات الشقاء . ومن يدري أي واحد من هؤلاء الخمسة لديه ما يسد به رمقه غداً ؟ !

وبينما هو غارق في لجة أفكاره وهواجسه مرت بقربه الآنسة بنسون وخيل اليه أنها اختلست قطعة الحلوى من الخوان ودستها في جيبها

— ٥ —

وانبلج الصباح فانقض السامر وتفرق السمار ، ومضى أوجين يدلف في الدروب والسكك يستنشق نسيم الصباح المليل وهو ممعن في خوض عميم من أفكاره السوداء وصار يردد على رغمه :

« ليس لميمي غير ثوب واحد وقبعة » . ويتساءل : — هل تدفع التعاسة الانسان إلى التظاهر بالجذل والسخر من البؤس ؟ وهل يفتر ثغر جائع عن ابتسامة ! . . .

وكان يعتاده الأسى إذا ما ذكر أمر اختلاس الحلوى فيهتز حنواً ورحمة ويقلب الأمر ظهراً لبطن ويقول :

— ترى لم سرقت الحلوى ولم تسرق الخبز !... ثم لا يلبث أن يلتمس لها عذراً

لم ينتبه أوجين ليرى أين طاحت به قدماه ، فدخل اتفاقاً بعض المنعطفات التي أدت به إلى أزقة ضيقة ، فلما تبين ذلك عاد أدراجه فرأى امرأة هزيلة صفراء الوجه شمطاء الشعر أطمارها بالية خرجت من دار قديمة ، وقد بدا عليها السقام واصطكت ركبتاها حتى لم تكد تستطيع مشياً فجعلت تعتمد على الجدران

وبدا لأوجين أنها تقصد صندوق البريد القريب فابتدرها مضطرباً وسألها عن أمرها وهدفها ، ثم مد لها ذراعيه لتستند عليهما وقد شارفت على السقوط فازورت في كبرياء ووجل وألقت إليه بالبطاقة التي تحملها ، وأشارت إليه أن يضعها في الصندوق وعادت تجر ساقيها مشية النزيف أمضه الوني حتى دخلت دارها ، فتحرك لها فؤاده ورقت لها حناياه وأشاطه الحنو بعد رزانة فقض غلاف الرقعة دون ما روية أو تريث إذ أدرك أن هذه السقيمة قد تقضي قبل أن تتلقى جواباً ، وكان عنوان الغلاف : « الى حضرة البارون ... » وفحواه ما يأتي :

« اقبل يا سيدي كتابي ولا تهمله ، فأنا أموت جوعاً إذ لم أحصل على بلغة منذ أيام ، وأمس بت على الطوى وما أزال ، وقد لا يصل كتابي إليك إلا وأصبح شريدة بلا مأوى ، فقد أقعدني المرض عن العمل لأكسب قوتي وأدفع أجرة المسكن . أرسل لي بربك ديناراً بلا تأخر ، ولا تدعني في شك يلتهم ما أبقت الآلام مني ، إني منتظرة حتى نهار الخميس في داري : شارع

المهماز ، واسمي الجديد الآنسة برنان » « روجيت »

دهش أوجين أشد دهشة لما رأى التوقيع وتمتم قائلاً :

— إنها الفتاة التي بددت دراهمها نفسها ... لقد ألقى بها الداء إلى هذه الهاوية من الذل ! ... وأردف يتابع نجواه :

— ليت شعري ألم تعلم صديقاتها بأمرها ؟ أم ترى تركنها تتضور جوعاً وفي العراء من غير ملجأ ! ...

وأفاق من ذهوله كأنما كان في حلم مريع فسارع إلى طاه كان يفتح حانوته فابتاع طعاماً ثم سار بقود أجير الطاهي إلى دار روجيت ؛ فلما وصلها أوعز للغلام أن يطرق الباب ويعطيها الطعام فان سألته عن مرسله فليقل إنه « البارون ... » ثم سار متثاقلاً فأصلح من شأن الرسالة وألقاها في صندوق البريد وهمس يحدث نفسه :

« أما إذا رأت روجيت أن جواب بطاقتها كان سريعاً فستفهم السر من البارون »

— ٦ —

كان أوجين يرى من الواجب أن يرفق المائدة المرسلة بالدينار المطلوب ولكنه كان خالي الوفاض صفر اليدين . فان الطلاب كالعاملات فقراء ، وليست الدراهم بضاعة رائجة في الحي اللاتيني ؛ لذا قصد فتانا حلاقاً مرابياً في ساحة البانطيون ليرهن بعض حاجاته وهناك ألفى خليله مارسل يحاق لحيته ويقترض مالاً يفي به ثمن عشاء الأمس ، فلما أبصره هذا سأله عن جلية أمره فأطلعه بايجاز على قصده ، فسخر منه مارسل وصار يعنفه وأوجين لا يزداد إلا متانة وعزماً ، وأخذ يلوم ميمي بنسون وأضرابها من الصديقات اللواتي يتناسين عشيراتهن بالأمس ويوجه إليهن سهاماً صائبة من الانتقاد والاحتقار الشديد إلى أن قال :

— إن فتاتك بنسون غول فظيع عدا كونها متهللة خليعة ماجنة . أما صداقتها فمادية ممقوتة

فقال الحلاق المرابي واسمه الأب كاديديس :

— إنك قاس وحكمك جائر لأني أعرف الآنسة بنسون وأعتقد أنها نبيلة سامية وهي عظيمة

فأجاب أوجين : — نعم هي عظيمة في شراهتها وكثرة تدخينها

فقال المرابي : — ذلك ممكن وأكثر الشبان ما بين آكل وضاحك ومغن ومدخن ، على أن منهم من له قلب يحس ويتألم فسأله مارسل : — ما ذا تقصد ؟

فأجاب الحلاق : — هناك في مؤخرة الحانوت ثوب حريري تعرفانه يا سيدي لأنكما تعلمان أن صاحبته لا تملك سواه ، وهي الآنسة ميمي التي رهنتنيه فجر اليوم لكي تسعف روجيت أولاً فانها في أشد عوز

ودخل مارسل إلى أقصى الحانوت ليشاهد الثوب العتيد وتبعه أوجين فقال الأول :

— إن أنشودة ميمي كاذبة إذ رهنت رداءها ! . . . كم أعطيتها أيها الأب كاديديس على هذه الرهينة الثمينة

— أقرضتها أربعة فرنكات وكنت لها محسناً لأن الثوب بال قديم . فصاح مارسل :

— مسكينة ميمي ! أراهن على أنها رهنت الرداء لتساعد روجيت ؟

فقال أوجين : — أو لتدفع ديناً ممطولاً

وأردف المرابي قائلاً : وإني لأذكر أن بعض دائنيها حجزوا على أثاث دارها ولم يتركوا لها سوى سريرها وكانت نائمة عليه وقد ارتدت أربعة أثواب فوق بعضها كيلا يأخذ الغرماء واحداً منها ، وقد كانت يومئذ في حال خير من حالها اليوم ، فلم ترهن ثوبها إذن لتفي ديناً ، ويدهشني أن يكون ذلك لمعونة بائسة مثلها

واسترد مارسل الثوب بعد أن دفع قيمة الرهن ، وخرج مع صديقه — الذي أصر على أن الرهن ليس من أجل روجيت — فقصد دار ميمي تنفيذاً لرهان عقداه

— ٧ —

— ذهبت الآنسة إلى الصلاة

هذا ما قاله البواب للطالبين عند ما سألاه عن ميمي

فصاح أوجين في عجب : إلى الصلاة !

وردد مارسل : إلى الصلاة ! هذا مستحيل لأنها لم تبرح الدار . دعنا ندخل فنحن أصدقاء قدماء

ولكن البواب أكد لهم أنها خرجت مذ هنيهة إلى الكنيسة المجاورة دأبها كل صباح . وفيما هم كذلك إذ ظهرت تجتاز الشارع فأسرع مارسل ينعم النظر في أثوابها فرآها ترتدي غلالة عتيقة مؤتزرة بستارة نافذة من الصوف الأخضر ، وقد

سترت رأسها بنصيف أبيض فبدت بهذه الأطمار خلابة وأزاحت الستر قليلاً فبانت قامتها الهيفاء . وقالت للفتيين : — هـذا ثوب تفضل

فقال مارسل — لعمري إنك فاتنـة . قالت : إني غدوت كزمة . قال : بل طاقة ورد ، وإني نادم إذ رددت لك ثوبك . قالت : وأين وجدته ؟ !

قال : فـكـكت أسره ، وأطلقت رقه ، ودفعت فديته ، فهل تغفرين جرأتي ؟

قالت : نعم وسأنتقم

وأخذت ترقى الدرج إلى غرفتها وخلفها الصديقان حتى وصلت إليها ، فدخلوا جميعاً . وقال مارسيل : — لا أعيد لك الرداء إلا على شرط

قالت : ويحك ! أشروط ! إنها حماقة لا أريدها

قال : لقد تراهنا ! فقولي بصراحة لم رهنت ثوبك ؟

قالت : دعني أرتديه ثم أخبركما عن السبب . استرا وجهيكما كي لا أضطر الى لبسه في الخزانة أو على السطح . فأجاب مارسل : — اطمئني فلن نختلس نظرات

— إني أثق بكما ولكن قيل : احذر الأمين

وخلعت الستارة وألقتها على وجهي الشابين ، وأمرتهما بالصمت والخضوع ، فقال مارسيل : احذري أن يكون في الستر خرق تراك منـه ، فقد جعلنا فعلك في حل من كلامنا

فهتكت الستار ضاحكة فقالا :

— سرك يا آنسة هلا بحت لنا به وأنجزت وعدك ؟

فترددت هنيهة ثم دفعتهما نحو الباب وقالت :

— تعاليا معي فتريا

— ٨ —

بعد مسير غير قصير في طرق ملتوية ودروب ضيقة سار فيها أوجين من قبـل وصل الثلاثة إلى دار روجيت فدخلوها ، وقد ربح مارسل الرهان لأن الأربعة فرنكات وقطعة الحلوى التي سرقتها الآنسة بنسون أمس كانت على المائدة مع فضلات الدجاجة التي أرسلها أوجين

وكان حال المريضة خيراً من قبل ، وكان شكرها للمحسن المجهول عظيما . وقد اعتذرت بواسطة صديقتها بأنها غير قادرة أن تستقبل الشابين فانصرفا متعجبين من هذه الكبرياء وهذه العفة

وبعـد أن حضرا دروسهما في المعهد تغديا معاً ، وفي المساء خطرا يتنزهان في الشارع الايطالي . وأخذ مارسل يحاور عشيره ويحاول إقناعه قائلاً :

— طالما لمتني على حبي هؤلاء العاملات ، وقد رأيت من طيب أنفسهن ونبلهن البرهان القاطع . من هو ذلك المحسن الذي قام بما قامت به ميمي من أجل صديقتها ؟ إن فتاة ترهن ثوبها الوحيد وتسرق قطعة حلوى لتساعد رفيقتها الجديرة بالتقديس وخلود الذكر . أما تلك العليلة فانها لا تقل عن خديناتها شرفاً وطهراً ؛ ولو أن فيها أدنى شائبة لما طلبت كسائلة صدقة من أحد . وكادت تقضي منتظرة لولاك ، فلم تخش موتاً محققاً ، وهي التي عرفت حلاوة العيش عند ما ألقت بنفسها في النهر مرة من قبل

فقال أوجين : حسبك يا مارسل ! أتظن أن أباتي كهؤلاء بلا عائل ولا سند هن ذوات حنكة أو دراية كافية ؟ وهل يا ترى تذرن أنفسهن البائسة للشقاء والتعاسة ؟ ليت شعري متى يعدن إلى جادة الخير والصلاح ؟ ألا قل لي أو لا تعاملوهن يا معاشر الشباب بطيشكم وبجونكم المعهودين ؟ ! هيا بنا إلى دار روجيت الريضة علّنا نحملها على أن تسلك الصراط المستقيم ، ولن أطلب منها قسما بل لا أؤنبها ولا أوبخها ، ولكني سأقترب من سريرها فآخذ بيديها ويدي صاحبتها وأقول لهما . . .

ومرّ آنئذٍ أمام مقهى لاح لهما فيه على ضوء المصباح وجها فتاتين تأكلان حلبياً مجمداً ، فلما رأتا الشابين لوحت لهما الأولى بمنديلها ، وقهقهت الأخرى ضاحكة . فقال مارسل مقاطعاً أوجين :

— واهاً ! إن كنت ترغب أن تحدثهما فهم هنا في مرح ولهو ، ويظهر أن البارون قام بالمطلوب

فأجابه :

أولا يخيفك جنون كهذا ؟

نعم ! لكني أوجو ألا تعامن في العاملات وخصوصاً اللواتي على شاكلة بنسون

(دمشق) مظفر البقاعي